النظام المالي في الإسلام

إِنَّ الْحَمْـدَ لِلَّهِ، نَحْمَـدُهُ وَنَسْـتَعِينُهُ وَنَسْـتَغْفِرُهُ، وَنَعُـوذُ بِـاللَّهِ مِـنْ شُـرُورِ أَنْفُسِـنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُـمُ الَّـذِي خَلَقَكُـمْ مِـنْ نَفْـسٍ وَاحِـدَةٍ، وَخَلَـقَ مِنْهَـا زَوْجَهَـا، وَبَـثَّ مِنْهُمَـا رِجَـالًا كَثِيـرًا وَنِسَـاءً وَاتَّقُـوا اللَّهَ الَّـذِي تَسَـاءَلُونَ بِـهِ وَالْأَرْحَـامَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ وَقُولُـوا قَـوْلًا سَـدِيدًا، يُصْـلِحْ لَكُـمْ أَعْمَـالَكُمْ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أَمَّـا بَعْـدُ، فَـإِنَّ أَصْـدَقَ الْحَـدِيثِ كِتَـابُ اللَّهِ، وَخَيْـرَ الْهَـدْيِ هَـدْيُ مُحَمَّـدٍ ﷺ، وَشَـرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

عِبَـادَ اللَّهِ.. لَقَـدْ خَلَـقَ اللَّهُ سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى الْخَلْـقَ، وَأَوْجَـدَ الْبَشَـرَ، وَهُـوَ أَعْلَـمُ بِمَـا يُصْـلِحُهُمْ، وَمَـا يَـنْفَعُهُمْ، فَشَـرَعَ لَهُـمْ سُـبْحَانَهُ مِـنَ الشَّـرَائِعِ مَـا تَقُـومُ بِـهِ مَصَـالِحُهُمْ، وَتَسْتَقِيمُ حَيَاتُهُمْ. فَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ.

وَالْمَـالُ مَـالُ اللَّهِ، جَعَلَـهُ بَـيْنَ النَّـاسِ، يَضْـرِبُونَ فِي الْأَرْضِ، فَيَكْسِـبُونَ وَيُكْسِـبُونَ، وَيَتَـدَاوَلُونَ بَيْـنَهُمْ، وَفَـتَحَ لَهُـمْ مِـنَ التَّعَـامُلَاتِ مَـا يَشَـاءُونَ، كمـا قَـالَ سُـبْحَانَهُ: ﴿وَأَحَـلَّ اللَّهُ الْبَيْـعَ﴾، وحـثّ سـبحانه وتعـالى على السـعي في الأرض لطلـب الـرزق، ﴿ فَامْشُـوا فِي مَنَاكِبِهَـا وَكُلُـوا مِـن رِّزْقِـهِ﴾، ومـع ذَلِـكَ جَعَـلَ لَهُـمْ حُـدُودًا حَـرَّمَ عَلَـيْهِمْ تَجَاوُزَهَـا، وحـذر مـن الْقُـرْبِ مِنْهَـا، حَتَّـى لَا تَتَسَـلَّطَ الْقِلَّـةُ عَلَـى الْمَـالِ وَتَسْـتَحْوِذَ عَلَيْـهِ، وَتَـتَحَكَّمَ بِـهِ، وتظلـم بـه، لِيَضْـمَنَ رَبُّنَـا تَعَـالَى الْعَـدْلَ بـين النـاس، وَيَحْمِيَ الضَّعِيفَ، ويصلُ الخيرَ للجميع، ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾.

فـإذا التـزمَ النـاسُ بهـدي الله وشـرعتِه في المـالِ عُمـرت الْأَرْضُ، وانـدثَرَ الفَسـاد، وانتفـت الْمَصْـلَحَةِ الشَّخْصِـيَّةِ وَالنَّفْعِيَّـةِ الْفَرْدِيَّـةِ القائمـة على الحريـة والأنانيـة، وقُدمت مصلحةُ المجتمع، وعاشَ الجميعُ حياةً كريمةً.

لقَـدْ عَلِـمَ رَبُّنَـا سُـبْحَانَهُ أَنَّـهُ لَـيْسَ كُـلُّ أَحَـدٍ يَسْـتَطِيعُ السَّـفَرَ وَالتِّجَـارَةَ، كمـا أخبر عـن فئـة مـن النـاس بقولـه تعـالى: ﴿لَا يَسْـتَطِيعُونَ ضَـرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾، وآخـرون لهـم مـن الظـروف والأحـوال مـا اسـتحقوا جـزءا مـن أمـوالِ الموسـرين، واجـبُ مـن الله تعـالى، لـيس للغني في منّـه، قـال تعـالى: ﴿إِنَّمَـا الصَّـدَقَاتُ لِلْفُقَـرَاءِ وَالْمَسَـاكِينِ وَالْعَـامِلِينَ عَلَيْهَـا وَالْمُؤَلَّفَـةِ قُلُـوبُهُمْ وَفِي الرِّقَـابِ وَالْغَـارِمِينَ وَفِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَابْـنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

فأوجـب الله تعـالى مـن المـال لهـؤلاء الأصـناف الثمانيـة مَـا يَضْـمَنُ لهـم الْحَيَـاةَ الْكَرِيمَةَ، وَبِمَا يَقْضِي عَلَى الْفَقْرِ، وَيُخَفِّفُ مِنْ وَطْأَتِهِ.

وَحَـثَّ سـبحانه وتعـالى عَلَـى الصَّـدَقَاتِ وَالنَّفَقَـاتِ، وَأَمَـرَ بِـالْوُقُوفِ بِجَانِـبِ الْمُحْتَـاجِ، وَحَـثَّ عَلَـى رِعَايَـةِ مَـالِ الْيَتِـيمِ، وَقَسَـمَ بِنَفْسِـهِ تَعَـالَى الْمِيـرَاثَ، وَشَـرَعَ الْأَوْقَافَ وَنَدَبَ إِلَيْهَا.

وَمِـنْ جَانِـبٍ آخَـرَ شَـدَّدَ عَلَـى الشَّـفَافِيَّةِ فِي الْعُقُـودِ، وَنَهَـى ﷺ عَـنْ بَيْـعِ الْجَهَالَـةِ وَالْغَـرَرِ، وَالظُّلْـمِ وَأَكْـلِ الْمَـالِ بِالْبَاطِـلِ، وَالْغِـشِّ والخـداع، والِاحْتِكَـارِ، وَالتَّعَامُـلِ بِالرِّبَا.

فَكَـانَ النِّظَـامُ الْمَـالِيُّ فِي الْإِسْـلَامِيِّ أَرْقَى الْأَنْظِمَـةِ، وَأَصْـلَحَهَا وَأَعْـدَلَهَا، فَبِـهِ يُنْتَشَـلُ الضَّـعِيفُ وَالْفَقِيـرُ، وَتُرْفَـعُ كَرَامَتُـهُ بِقِسْـمَةٍ عَادِلَـةٍ مِنْـهُ تَعَـالَى، ﴿وَآتُـوهُمْ مِـنْ مَـالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾.

نظـام المـال فـي الإسـلام لا يسـمح بالوحشـيةِ، ولا الْجَشَـعِ وَالِاحْتِكَـارِ وَالتَّسَـلُّطِ وَظُلْـمِ الْغَنِيِّ والاكتنـاز دون إنفـاق، حَتَّى لَا يُنْـتِجَ الْمَـالُ فَـوَارِقَ طَبَقِيَّـةً بَـيْنَ أَفْـرَادِ الْمُجْتَمَـعِ، وَيُتْـرَكَ الْمَـالُ "دُولَـةً بَـيْنَ الْأَغْنِيَـاءِ"، لِيَضْـمَنَ الِاسْـتِقْرَارَ الْمَـالِيَّ، وَالِاسْـتِمْرَارَ وَالدَّيْمُومَةَ وَرَغَدَ الْعَيْشِ، وَالْحَيَاةَ الْكَرِيمَةَ لِلْجَمِيعِ، أَفْرَادًا وَأَنْظِمَةً.

وَمتى ما استبدل الناسُ بشرعِ الله شرائعَ البشر، وقدّموا المصلحةَ الفردية على المصلحة العامة، وَاتُّبَعَ الْهَوَى، وَقَامَ الْاقْتِصَادُ عَلَى حُرِّيَّةِ السُّوقِ، وَالْمُنَافَسَةِ غَيْرِ الشَّرِيفَةِ، فَإِنَّهَا بِقَدْرِ وَحْشَتِهَا وَبُعْدِهَا عَنْ شَرْعَةِ اللَّهِ وَمِنْهَاجِهِ تَحْمِلُ هَلَاكَهَا وَفَنَاءَهَا.

إِنَّ تِلْكَ الْأَنْظِمَةَ الرَّأْسِمَالِيَّةَ الْمُتَوَحِّشَةَ تَظُنُّ أَنَّهَا تَرْتَقِي وَتَزْدَهِرُ، وَهِيَ فِي حَقِيقَتِهَا تَهْوِي وَتَنْحَدِرُ، إِنْ بَدَتْ فِي ظَاهِرِهَا مُتَحَضِّرَةً، فَإِنَّهَا تَحْمِلُ فِي دَاخِلِهَا عَوَامِلَ فَنَائِهَا وهَلَاكِهَا. فَهِيَ أَنْظِمَةٌ تَحْفِرُ قَبْرَهَا بِيَدِهَا، حِينَ تُؤَسِّسُ اقْتِصَادَهَا عَلَى الرِّبَا والجَشَع، وَتُبِيحُ أَكْلَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَتُقَدِّسُ الْفَرْدِيَّةَ وَالْأَنَانِيَّةَ، وَتُهْمِلُ الْعَدَالَةَ الِاجْتِمَاعِيَّةَ، وَتغفل التَّكَافُلَ الْإِنْسَانِيَّ.

إِنَّهَا أَنْظِمَةٌ تُرَاكِمُ الثَّرْوَةَ فِي يَدِ الْقِلَّةِ، وَتَتْرُكُ الْكَثْرَةَ فِي لُجَّةِ الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ. تُنْتِجُ قُلُوبًا قَاسِيَةً، وَأَسْوَاقًا مُفْتَرِسَةً، وَأَخْلَاقًا مُنْهَارَةً، أُقْصِيَتْ فِيهَا الرَّحْمَةُ، وتركت الضعيفَ فريسةً للجوعِ والديونِ.

أَنْظِمَةٌ تَخْلُقُ الْعَدَاءَ مَعَ الْعَالَمِ، وَتَسْعَى لِإِنْقَاذِ نَفْسِهَا عَلَى حِسَابِ الْجَمِيعِ. لَكِنْ سَتَنْتَصِرُ الأنظمة الرَّبَّانِيَّةُ، فسننَ الله لا تتخلَّف، فَلْتَنْتَظِرْ مَا وَعَدَ اللَّهُ تَعَالَى إِذْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾.

حكى القرآنُ الكريمُ قصةَ شعيبٍ عليه السلام مع قومِه، وكيف أن فسادَ النظامَ الماليَ سببُ هلاكِ المجتمع، فنصحَ شعيبٌ عليه السلام قومَه وحذرَهم بقوله: ﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾، فأصروا على فصلِ الدين عن حياتِهم وتعاملاتِهم المالية، ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾، فقادهم العناد والاستكبار للهلاك، ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾.

لَقَدْ وَعَدَ الْحَقُّ تَعَالَى بِذَهَابِ كُلِّ مَالٍ قَامَ عَلَى الرِّبَا وَالظُّلْمِ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾، جَاءَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّ الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ تَصِيرُ إِلَى قُلٍّ" (رَوَاهُ أَحْمَدُ)، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْمُعَامَلَةِ بِنَقِيضِ الْمَقْصُودِ، وَرَوَى ابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ الْهَيْثَمِ بْنِ رَافِعٍ، "مَنِ احْتَكَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَعَامَهُمْ ضَرَبَهُ اللَّهُ بِالْجُذَامِ وَالْإِفْلَاسِ" (رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ).

أَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي مُصَنَّفِهِ عَنْ مَعْمَرٍ قَالَ: سَمِعْنَا أَنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَى صَاحِبِ الرِّبَا أَرْبَعُونَ سَنَةً حَتَّى يُمْحَقَ. قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: «قَدْ رَأَيْتُهُ».

وَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُهْلِكَ أَنْظِمَةَ الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ، الَّتِي بَغَتْ وَاعْتَدَتْ وَتَجَبَّرَتْ وَأَكْثَرَتْ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ، اللَّهُمَّ صُبَّ عَلَيْهَا سَوْطَ عَذَابٍ. يَا قَوِيُّ يَا جَبَّارُ.

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا..

الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْـدُ لِلَّهِ حَمْـدًا كَثِيـرًا طَيِّبًـا مُبَارَكًـا فِيـهِ، كَمَـا يُحِـبُّ رَبُّنَـا وَيَرْضَـى، وَأَشْـهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

وَبَعْدُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ..

إِنَّ الْعَـالَمَ الْيَـوْمَ بِحَاجَـةٍ إِلَـى النِّظَـامِ الرَّبَّـانِيِّ الْإِسْـلَامِيِّ الْعَـادِلِ، الَّـذِي يُقِـيمُ الاقتصـادَ علـى العـدلِ الرحمـةِ، ويحـركُ السُّـوقَ عَلَـى الْقِـيَمِ، لَا عَلَـى الشَّـهْوَةِ وَالتَّمَرُّدِ وَالْحُرِّيَّةِ.

لِـنَعْلَمَ أَنَّ مَـا يُقَـارِبُ "سَـبْعَ مِئَـةِ مِلْيُـونِ" شَـخْصٍ فِي الْعَـالَمِ يَعِيشُـونَ تَحْـتَ خَـطِّ الْفَقْرِ الْمُدْقِعِ، كما أشارت تَقَارِيرِ الْبَنْكِ الدَّوْلِيِّ.

وَلَيْسَـتْ هَـذِهِ الْأَعْـدَادُ فِي الـدُّوَلِ الْفَقِيرَةِ، بَـلْ حَتَّى فِي الـدُّوَلِ الْمُتَقَدِّمَـةِ، فَفِي أَمْرِيكَا تَصِلُ نِسْبَةُ الْفَقْرِ إِلَى "أَحَدَى عَشَرَة" بالْمِئَةِ.

لِمَاذَا الْفَقْرُ يَنْتَشِرُ رَغْمَ وَفْرَةِ الْمَوَارِدِ؟

وَلِمَاذَا الْجَشَعُ يَعْلُو رَغْمَ كَثْرَةِ الْقَوَانِينِ؟

وَلِمَاذَا تَنْهَارُ اقْتِصَادَاتٌ عُظْمَى، وَتَضْطَرِبُ الْأَسْوَاقُ بِلَا رَحْمَةٍ؟

لِأَنَّهُمْ أَعْرَضُوا عَنْ هَدْيِ اللَّهِ فِي الْمَالِ، وَرَكَنُوا إِلَى شَرِيعَةِ الْبَشَرِ.

الْمَـالُ فِي الْإِسْـلَامِ نِعْمَـةٌ، لَكِـنْ إِذَا انْفَلَـتَ مِـنَ الْقِـيَمِ صَـارَ فِتْنَـةً، ﴿وَاعْلَمُـوا أَنَّمَـا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

الْمَـالُ فِي الْإِسْـلَامِ عِبَـادَةٌ إِنْ حَسُـنَ اسْـتِخْدَامُهُ، قَـالَ ﷺ: "نِعْـمَ الْمَـالُ الصَّـالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ" (رَوَاهُ أَحْمَدُ).

النِّظَـامُ الْإِسْـلَامِيُّ يحـثُ علـى التجـارةِ والتملـك، ويحـذّر مـن أن يكـون الإنسـانُ عبداً لدرهمِه ودينارِه.

النِّظَـامَ الْإِسْـلَامِيَّ يحـرمُ الظلـم والرِّبَـا والجشـع، لِحِمَايَـةِ النَّـاسِ مِـنَ الِاسْـتِعْبَادِ الْمَالِيِّ، ومِنَ الِاسْتِغْلَالِ.

الإسـلامُ فـرضَ الزكـاةَ وأوجبَهـا، وتوعـدَ مانِعَهـا، وَحَـثَّ عَلَى الصَّـدَقَاتِ ونـدب إليهـا فِـي كُـلِّ وَقْـتٍ وَحِـينٍ، حَتَّـى يَصِـلَ الْمَـالُ إِلَـى الضـعفاء والْمَحْـرُومِينَ وَالْمُحْتَـاجِينَ، وَيَنْتَفِـعَ الْمُجْتَمَـعُ، وَيَتَشَـارَكَون فِي اللُّقْمَـةِ وَالْكِسْـوَةِ، قَـالَ ﷺ: لَـيْسَ الْمُـؤْمِنُ بِالَّـذِي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبَيْهِ. (رواه البيهقي وصححه الالباني)

لَقَـدْ جَـرَّبَ الْعَـالَمُ أَنْظِمَـةً بَشَـرِيَّةً فِي التَّعَامُـلِ الْمَـالِيِّ، وَفَشِـلَتْ فِي تَحْقِيـقِ الْكَرَامَـةِ الشَّـامِلَةِ.

أَمَّـا الْإِسْـلَامُ، فَهُـوَ النِّظَـامُ الْوَحِيـدُ الَّـذِي يُصْـلِحُ الْأَرْضَ وَيُزَكِّـي الـنَّفْسَ، وَيَجْعَـلُ الْمَالَ وَسِيلَةً لِلْخَيْرِ لَا أَدَاةً لِلِاسْتِعْلَاءِ.

اللَّهُمَّ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ.

اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي أَمْوَالِنَا.

اللَّهُمَّ إِنِّي نَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ، وَالْقِلَّةِ، وَالذِّلَّةِ، وَنَعُوذُ بِكَ أَنْ نَظْلِمَ أَوْ نُظْلَمَ.

اللَّهُمَّ اكْفِنَا بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنَا بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ.